



المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة



اسم الموضوع : شيخوخة اللاعب الأوروبي

عنوان الموضوع : شيخوخة اللاعب الأوروبي

تاريخ النشر : 29/07/2019

اسم الكاتب : غسان شربل

الموضوع :

لا غرابة أن تحتجز إيران ناقلة ترفع العلم البريطاني لمبادلته بالناقلة التي احتجزت في جبل طارق. احتجزتها من دون أن يرفأ لها جفن. تعرف إيران أن بريطانيا الحالية ليست بريطانيا السابقة. وأن أوروبا الحالية ليست أوروبا التي كانت. يمكن القول أيضاً إن الروح الأطلسية ليست في أفضل أيامها. تشبه اللعبة الدولية كرة القدم. حظوظك فيها مرهونة باللياقة والفتوة والبراعة والصبر والتماسك وحسن توزيع الأدوار بين أعضاء الفريق. وفي كرة القدم الفتوة مفتاح. لذلك تنقلص فرص اللاعب الأوروبي، ليس في تسجيل نقاط جديدة فحسب، بل في الحفاظ على المكاسب السابقة. يبحث الصحفي عن قصة أوروبية استثنائية فلا يجد. الديمقراطية لا تحب الرجال الأقوياء. وسائل التواصل الاجتماعي تعري المتسابقين من الهالة إذا وجدت. تستدرجهم إلى ملعب الفضائح والتارات والمهاترات. انتهت تلك المرحلة التي كانت الأحداث الكبرى تنجب فيها رجالاً استثنائيين. لن تعثر فرنسا على شارل ديغول آخر. لن تجد ساحراً من قماشة فرنسوا ميتران. صار من السهل استنزاف السيد الرئيس المقيم في قصر الإليزيه. هذه قصة فرنسا وقصة غيرها. تستعد أنجيلا ميركل للمغادرة من دون أن تكون ألمانيا موعودة بمستشار برتبة قائد. لا شيء يوحي بأنها قادرة على إنجاب كونراد أديناور الذي انتشلها من ركامها ودفعها في طريق الديمقراطية والازدهار والاستقرار. ولا تبدو قادرة على ارتكاب زعامة مشابهة لزعامة هلموت كول الذي التقط الفرصة التاريخية التي شكلها انهيار الجدار، وأعاد توحيد ألمانيا من دون نقطة دم. بريطانيا مصابة بالمرض نفسه. بوريس جونسون نفسه يعرف القصة. لا يكفي أن تجلس في مكتب ونستون تشرشل لتصبح تشرشل. ولا يكفي أن تجلس على مقعد مار غريت تاتشر لتستحق لقب «الرجل الحديدي». هذا زمن أوروبي عادي جداً يصلح لرجال عاديين أو أقل وإن كانوا أكثر خطورة. هذا زمن الزعماء الذين يولدون في عبادة «تويتتر» و«فيسبوك» وسائر وسائل التواصل. لم تكن أوروبا تتوقع ما حدث. وفي الحقيقة لم يتوقعه أحد. انهيار جدار برلين وألقت ألمانيا الشرقية بنفسها في حضن الوطن الأم. انهيار الجدار. وانهار النموذج. وانهار الاتحاد السوفياتي. فتحت أوروبا صدرها للدول الفارة من القيد السوفياتي. حلف الأطلسي فتح هو الآخر ذراعيه. ساد الاعتقاد بأن العصر الأميركي قد بدأ، وأن العالم سيعيش في عهدة القوة العظمى الوحيدة. نظرت أوروبا إلى روسيا يلتسين فرأته تترنح. رأت ضباط «الجيش الأحمر» يبيعون بزاتهم مع الأوسمة في شوارع موسكو بحفنة من الدولارات. لم تنتبه أوروبا إلى أن روسيا العميقة كانت تتملل من إملاءات السفراء الغربيين ونصائحهم. وأنها كانت تعد للثأر من مشهد الانتحار السوفياتي. لم تلتقط أوروبا ما حصل في الليلة الأخيرة من القرن المنصرم. أطل بوريس يلتسين معلناً استقالته وتواريه، واضعاً روسيا المريضة في عهدة كولونيل كان يقيم على مقربة من الجدار الألماني حين راح يتداعى وسارع إلى إتلاف وثائقه السرية قبل المغادرة. كان اسم الكولونيل فلاديمير بوتين. رجل تعلم في أروقة جهاز الـ«كي جي بي» فن إخفاء المشاعر وتوجيه الضربات القاصمة بقفاز من حرير. بدت أوروبا حلمياً إنسانياً رائداً. قطار بمقطورات متنوعة يسافر نحو التقدم والازدهار متكناً على إرث ضخم من الثورات والاكتشافات والأفكار والأنوار. قارة تعلمت من حربيين عالميين خطورة المتعصبين والمغامرين وخطورة استخدام القوة للتلاعب بالخرائط ومحو ملامح وفرض أخرى. حلم مشترك وعملة موحدة وحدود تم تحويلها فرصة تلاقٍ وممراً آمناً لتدفق السلع والمسافرين والأفكار. واقتصرت النزاعات على الجدالات في شأن الميزانيات وأسعار الأجبان والنبذ، قبل أن تنفجر يوغوسلافيا لتذكر أوروبا المطمئنة بشباطين أزمت الهويات ورائحة الدم. كانت أوروبا تواصل بهوء أحلامها وخلافاتها حين كانت الصين تنهض من نومها الطويل. أحال ورثة دينغ هسيو بينغ ضريح ماو تسي تونغ إلى التقاعد الفعلي، وأطلقوا أكبر ورشة إصلاح وتحديث في التاريخ. البلاد التي كانت تعج بالفقراء الذين يتوسدون «الكتاب الأحمر» قررت الإمساك بمصيرها وتعريب موقعها ومستقبلها. تحت الرقابة الصارمة للحزب الشيوعي غادر مئات الملايين من الصينيين حالة الفقر، واندفعت البلاد في سباق محموم للإمساك بالتورة التكنولوجية والانخراط عميقاً فيها. ثم أفاق الأوروبيون ذات يوم ليكتشفوا أن الصين صارت الاقتصاد الثاني في العالم ومن دون أن تعتنق نظاماً يشبه الذي يعيشون في ظلها. وفي السنوات الأخيرة وجدت أوروبا نفسها أمام ثلاثة لاعبين مقلقين. رئيس أميركي يدير شؤون بلاده والعالم عبر «تويتتر» ويطالب القارة القديمة بدفع ثمن الاستمرار في حمايتها ومضاعفة ميزانية الدفاع لديها. ورئيس روسي لا يرى حرجاً في ضم القرم وزعزعة استقرار أوكرانيا لمعاقبة الأطلسي على الاقتراب من روسيا إلى حد تطويقها. ورئيس صيني يطلق هجوم «الحزام والطريق» منعشاً طرق الحرير وحلم العصر الصيني. في هذه الأثناء كان وجه الاتحاد الأوروبي يتجعد. دوله تعيش بسرعات مختلفة اقتصادياً وسياسياً وثقافياً. أرسلت انتخابات عدة إشارات تعب قسم من الأوروبيين من الحلم الذي ساد الاعتقاد أن لا رجعة عنه. أطل اليمين المتطرف في أكثر من مكان ودفع الأمواج الشعبية أصواتاً مقلقة إلى مقاعد البرلمان الأوروبي والحكومات مستغلة فشل سياسات الاندماج واستمرار تدفق أمواج اللاجئين. وتولت بريطانيا التي كان ديغول يشكك في صدق مشاعرها الأوروبية توجيه الضربة الأقسى باختيار ناخبها الطلاق تحت عنوان «بريكست». بدت أوروبا أشبه بمجموعة جزر أو قوارب تستعد للسير في اتجاهات مختلفة. وصول بوريس جونسون رسالة في هذا الاتجاه. لقد شاخ اللاعب الأوروبي. والشيخوخة عقاب وموعد مع الغروب والتفكك. *نقلا عن صحيفة الشرق الأوسط